

يحي

المحاضرة رقم 04: ممالك السودان الشرقي (النوبة، الفونج، دارفور، الحبشة).

تشمل بلاد السودان الشرقي الحوض الأعلى لنهر النيل أو ما يقع جنوب مصر، وتمتد على الجهة الشرقية من إفريقيا، وقد ظهرت في هذه المنطقة العديد من الممالك التي لها تاريخ ضارب في القدم.

أولا- ممالك النوبة:

يطلق لفظ النوبة على أجزاء وادي النيل الممتدة من جانبي نهر النيل الأعظم بين مدينتي أسوان والخرطوم الحالية، وقد قسم الجغرافيون إقليم النوبة إلى ثلاثة أقسام، هي: وادي النوبة العليا، ووادي النوبة الوسطى، ووادي النوبة السفلي. وجاء في النقوش المصرية القديمة ذكر كلمة "نوب"، ومعناها الذهب أي بلاد الذهب، وهذا أحد الأسماء التي أطلقها المصريون القدماء على هذه البلاد، أما اليونانيون فأطلقوا على هذه الأقاليم كلها اسم إثيوبيا، وكان العرب قبل الإسلام يطلقون اسم الكوشيين على سكان بلاد النوبة نسبة إلى كوش بن نوح. انتشرت المسيحية في بلاد النوبة، وعرفت المنطقة ثلاث ممالك نصرانية هي من الشمال إلى الجنوب:

- مملكة نوباديا وعاصمتها فرس (حوالي 500 كم جنوب أسوان).
 - مملكة المقررة وعاصمتها دنقلة (حوالي 400 كم شمال الخرطوم).
 - مملكة علوة في الجنوب وعاصمتها سوبا (جنوب الخرطوم على النيل الأزرق).
- وبعد استقرار المسلمين في مصر قرروا تأمين حدودها الجنوبية، فجهزوا حملة بقيادة عبد الله بن أبي سرح سنة 641/21هـ للهجوم على النوبة، وعاصمتها دنقلة إلا أنها فشلت، وعادوا المسلمين بقيادة عبد الله بن أبي سرح مرة ثانية سنة 651/31هـ، وفي هذه المرة دفعهم للاستسلام وعرضوا عليه الصلح، وعقدوا معه معاهدة هي معاهدة البقط. استمر الالتزام بها لستة قرون كاملة.

وكان لقيام دولة المماليك في مصر سنة 648/1250م دور كبير في القضاء على المملكة النصرانية في النوبة، حيث قادوا حملة عسكرية كان على رأسها الظاهر بيبرس سنة 675/1276م أنهت على إثرها الكيان السياسي المستقل للنوبة، ووضعت حاكما نوبيا تابعا لها اسمه شكندة، وكان للانقسامات السياسية داخل بلاد النوبة دور كبير في زوال المملكة على نحو نهائي سنة 722/1322م.

ثانيا- مملكة الفونج:

اختلف الباحثون في أصل الفونج، فقليل إنهم من سلالة عربية هربت من العباسيين، وأنهم جاؤوا إلى الحبشة أولا، ومنها إلى السودان الشرقي حيث تصاهروا مع ملوك السودان، وظهرت نواة إمارة الفونج بعد نهاية القرن 13م عقب القضاء على مملكة دنقلة المسيحية، واتسع نطاق هذه الإمارة غربا ووصل إلى أطراف الجزيرة، وأصبحت المنطقة الواقعة بين النيلين الأبيض والأزرق وصولا إلى الحبشة تابعة لمملكة الفونج بزعامة عمارة دونقس في القرن 9/15م.

حكم سلطنة الفونج حوالي 25 سلطانا مدة 258 عام، وتبدأ المرحلة الأولى بعمارة دونقس المؤسس (910هـ-940هـ)، وتستمر حتى 1012هـ عندما تولى السلطان عبد القادر أونسة السلطان التاسع، وتعتبر هذه الفترة فترة التأسيس والاستقرار، أما المرحلة الثانية تغطي معظم القرن السابع عشر الميلادي، وتبدأ بعهد عبد القادر أونسة سنة 1012هـ، وتستمر حتى تولى السلطان بادي الثالث سنة 1103هـ، وتتميز هذه الفترة بالاحتكاك الحدودي مع الحبشة في عهد السلطان رباط بن بادي الأول، أما المرحلة الثالثة فتبدأ بتولي بادي الثالث 1103هـ، وتنتهي بخلع السلطان الثامن عشر بادي أبو شلوخ سنة 1175هـ، والمرحلة الرابعة تمتد عبر العقود الأخيرة من تاريخها 1175هـ/1762هـ.

وقد ظهرت قبل ذلك عوامل الضعف في هذه السلطنة عندما تصدعت عرى التحالف بين سلاطين الفونج وعرب القواسمة الذين استقلوا عنهم سنة 1183هـ، كما كان لاستبداد الوزراء والقواد أثره في القضاء على هذه الدولة.

ثالثا- مملكة دارفور الإسلامية:

قامت مملكة دارفور على الأطراف الغربية من السودان الشرقي، وتختلف الروايات التاريخية التي تؤرخ لنشأة هذه المملكة، وبلاد دارفور عبارة عن هضبة تنتشر فيها المراعي، وتتخللها بعض المرتفعات مثل جبل مرة، ويتألف سكانها من العنصر الزنجي والعنصر الحامي، وكانت هذه البلاد مستقرا لشعب يسمى شعب الداجو وفد عليها من الشرق أو من جبال النوبة الواقعة غرب النيل الأبيض قبل القرن 12م وأسس فيها ملكا، وفي القرن 12م أيضا دخل هذه البلاد عنصر مغربي من تونس يتمثل في شعب التنجور خالطوا الداجو وصاهروهم، ووثبوا إلى الحكم عن طريق المصاهرة، لأن الداجو يجعلون للبنات حقا في الوراثة، ونتج عن هذا الاختلاط جنس مختلط يسمى الفور.

وهناك روايات عديدة حول بداية مملكة الفور، ومنها أن الملك كورو آخر ملوك الداجو وهو وثني اهتم بأمر أحمد أحد زعماء قبيلة التنجور العربية بعد أن عقره أخوه علي، وعهد إليه بإجارة شؤون بلاده فأحسن الأداء، فأحبه الملك وزوجه ابنته، فلما دنت ساعته عين أحمد المعقور خليفة له، وآل الأمر من بعده إلى عدد من أحفاده، وفي القرن التاسع عشر قضى التوسع المصري على هذه السلطنة.

رابعا- مملكة الحبشة:

تقع الحبشة في منطقة القرن الإفريقي شرق القارة، وتعرف حاليا بإثيوبيا، وهي لفظة يونانية معناها صاحب الوجه المحروق أو صاحب الوجه ذي اللون الأحمر القاتم أو الأحمر البني، وسميت البلاد نسبة إلى هؤلاء.

أما لفظ الحبشة فهي التسمية التي يطلقها العرب على هذه المنطقة الجغرافية، وهي اسم قبيلة حبشت اليمنية، وربما كانت أكثر القبائل التي هاجرت إلى الحبشة أهمية، حدث ذلك قبل الميلاد بعدة قرون، وعرفت منذ ذلك الوقت في المشرق بهذا الاسم، ويسمى الأحباش أرضهم إثيوبيا منذ اعتناقهم المسيحية في القرن 4م.

وتأسست في المنطقة مملكة أكسوم في الأجزاء الشمالية والشرقية من إثيوبيا حوالي منتصف القرن الأول الميلادي، وقد استطاعت أكسوم أن تصبح من أقوى دول العالم آنذاك، واتسعت حدودها حتى بلغت أقصاها في الثلث الأول من القرن السادس الميلادي، فوصلت بحدودها إلى سهول الصومال جنوبا، ومصر شمالا، والنيل النوبي غربا وعبرت حدودها الشرقية البحر الأحمر، فاحتلت جزءا من جنوب الجزيرة العربية.

وبدأت مملكة أكسوم تضعف في القرن 7/هـ خاصة بعد قيام الدولة الإسلامية وفتوحاتها وسيطرتها على الطرق التجارية في البحر الأحمر وإبعاد البيزنطيين حلفاء الأحباش عن الشرق كله، وبعد ذلك فإن الروايات التاريخية عن تاريخ الحبشة تكاد لا تفصل شيئا عن تاريخها حيث دخلت المملكة في صراعات مع جيرانها، وربما تكون تلك الأحداث قد ساعدت على وصول التجار المسلمين إلى الحبشة، وبالتالي انتشار الإسلام لاسيما مع انهيار مملكة أكسوم.